غرائب الخلق

نبذة في طبائع القرود ونوادرها

على مَ هؤلاء الاولاد يركضون كأنهم الى نَصَبٍ يوفضون . ولِمَ احتشد هذا الجمّ الغفير وهو لا يبالي بحر الهجير . وعلى مَن تجمّعت هذه الجماعة . أعلى ذي جنّة أم على ذي خلاعة . إستشرفِ الجمعَ واستَرِقِ السمعَ ترَ في وسط الحلقة رجلاً رث الثياب ضاحي الإهاب . بيدهِ دفٌّ يقرعه وبجانبهِ فتًى يغني ويصفّق بيديهِ . وامامهما حيوان صغير القد كالح الوجه غائر العينَين مرتجف الحاجبَين يقوم ويقعد ويرقص ويطفر ويثب على العصيّ والحبال كأنهُ معطًى خفّة الطيور وقوّة الابطال . ويستوي على ظهر الكلاب ويطلق لها العنان كأنهُ من فرسان الزمان ثم يدور على الجماعة يجمع منها الصدقات وهو يتوقع منها ان تقابلهُ بالحمد والشكران

هذا هو الحيوان العجيب الذي حار في امرهِ المتقدّمون والمتأخّرون فجاءهُ المصريون الاقدمون واكرموهُ واعتقدوا انهُ امهر من الانسان في الكتابة والهُّهُ الهنود وعبدوهُ واعتقدوا ان ملوكهم العظماء متسلسلون منهُ . وكرههُ العرب وتعوّذوا من شرّهِ وقالوا انهُ انسان اغضب الله فمسخهُ واقصاهُ عن مساكن الناس . وتقرّب منهُ البعض من علماء هذا الزمان فقالوا انهُ والانسان من اصل واحد فشاع قولهم وتناقلتهُ الالسنة وقالهُ الله منها فزادت فيهِ وانتقصت وغيّرت وبدّلت حتى يخال مَن يطالع كتابات بعض المدّعين ان قردةً اخذها الطلق فلم تلد قردًا بل ولدت بشرًا سويًّا وهم يزعمون ان هذا قول العلماء والعلماء براء منهُ ولا يعنونهُ الّا قولاً غريبًا

والقرد اقرب انواع الحيوان الى الانسان شكلاً واكثرها فهمًا وهو موجود في كل القارّات الشرقيّة والغربيّة ما عدا أستراليا ولكنهُ لا يستوطن الّا الاماكن الحارّة ولذلك لا يوجد الآن في اوربا الّا في جبل طارق ومنهُ هناك اجلّ واحد لم يكن فيهِ سنة ١٨٨١ الّا ثلاثة وعشرون قردًا . ولا تكثر القرود في مواطنها الّا حيث المطعم كثير . ولذكورها السيادة المطلقة في آجالها فان اقوى قرود الاجل واطولها ذراعًا واحدّها نابًا يتغلّب على بقية الذكور ويستقلّ بالقيادة والسيادة ويقوم باعبائها وتخضع لهُ بقية القرود وترضاهُ وتتسابق الاناث الى تفليتهِ وتنظيف جلدهِ من الحشرات والادران وهو يذود عنها ويدبّر امورها ويؤدّب العصاة ويقتصّ منها

وتنام القرود قبلما يجنّ الليل وتقوم بعد شروق الشمس فتصعد الى رؤوس الصخور والاشجار وتتشمّس حتى يجفّ الندى عنها ثم تتفلّى وتنظّف ابدانها وتشرع في التفتيش عن غذائها فلا تعفّ عن شيء يؤكل من انواع الاثمار والجذور والحبوب والاوراق والطيور والحشرات. واموال الناس مباحة عندها فلا تستحرم سرقة الحقول والكروم والجنائن ولا يصدها عنها سور ولا سياج. واذا باغتها احد وهي تنهب اموال الناس نكصت على اعقابها والتجأت الى الفرار فاذا رأت ابواب النجاة مفتوحة نجت والاّ هبّت في وجه خصمها معتمدة الدفاع ولو كان الخصم انسانًا او فيلاً ودفاعها مرّ كدفاع الجبان اذا اشتدّ عليه الخطر

وانثى القرد تحمل من سبعة اشهر الى تسعة وتلد واحدًا فقط وقلّما تلد اثنين خلافًا للدميري الذي قال في حياة الحيوان الكبرى انها "تلد في البطن الواحد العشرة والاثني عشر". وطفلها املط قبيح المنظر جدًا ولكنّ القرد في عين أمّهِ غزال فتضمّهُ الى صدرها وتدلّلهُ وتهتمّ اشد الاهتمام بتنظيف بدنهِ من كل ما يلحق بهِ من الاوساخ وهي احرص على ذلك من كثيرات من الامّهات. ويكون الطفل في صغرهِ خاملاً قليل الحركة والشعور. ثم تشتدّ اعصابهُ ويصير يحب اللعب مع غيرهِ من صغار القرود فتقيم امهُ قيامتها تحرسهُ لئلاّ تصيبهُ اذيّة. واذا مرض سهرت عليهِ اكثر مما تسهر الامّ الحنون على طفلها واذا مات تقوم بجانب جثتهِ وتنقطع عن الطعام والشراب الى ان تموت حزنًا عليهِ وكمدًا

وطوائف القرود كثيرة ولكنها تنقسم الى قسمين كبيرين وهما قرود العالم القديم اي قرود اسيا وافريقية واوربا وقرود العالم الجديد اي اميركا الشمالية والجنوبية. والقسم الثاني منها ينقسم الى طائفتين وهما القرود السنجابيّة والقرود الصخّابة وكلها وطنها اواسط اميركا من بلاد المكسيك الى بلاد برازيل والسنجابيّة منها حقيرة في شكلها وحركاتها فلا تكاد تماثل السنجاب خفّةً ولا تمشي الاّ على الاربع. والصخّابة ارقى منها كثيرًا وذنبها طويل قويّ جدًا تعتمد عليهِ اكثر مما تعتمد على ايديها وتأتي آجالاً كبيرة يتقدّمها قائد منها فتقتفي خطواتهِ وتقلّد حركاتهِ. ومتى قامت في الصباح سعت اولاً في طلب طعامها ثم صعدت على شجرة خالية من الاوراق ووقف قائدها على اكبر غصن من الشجرة وجعل يمشي عليهِ ذهابًا وايابًا ويصيح صياحًا اشبه بقباع الخنانيص وهي تصيح وراءهُ ويكون صياحها في الاول منقطعًا ثم تقصر الفترات التي بينهُ رويدًا رويدًا حتى يصير متصلاً فيصمّ الآذان وتدوي بهِ الجبال والقيعان ولذلك سُمّيت بالصخابة من الصخب اي الصوت الشديد

وقرود العالم القديم تنقسم الى طائفتين ايضًا الشبيهة بالكلاب (سينوبثيني) والشبيهة بالبشر

(انثربومرفا) والأولى لها اسنان كاسنان ذوات الاربع وانياب كانياب الكلاب. والثانية اسنانها كاسنان الناس الاَّ انيابها فانها ابرز من انياب الانسان وليس لها اذناب وقد تمشي منتصبة كالانسان والأولى مستكملة مزايا القرود فان لكل اجل منها قائدًا ذكرًا يدبر امورهُ ويعيّن اعمال كل واحد منهُ. وهي تظن في نفسها الترفُّع عن كل انواع المجاوات حتى على الكلاب مع ان الكلاب ليست دونها فهمًا وذكاء. ولمشابهة يديها ليدي الانسان تستطيع ان تأكل بالسكين والشوكة وتصب الشراب في الكاس وتشرب منهُ وتلبس الثياب وتركب الخيل وتتعلَّم الحركات العسكرية وتخدم اسيادها كما يخدمهم الانسان. والظاهر ان القدماء عرفوا ذلك واستخدموا القرود لغايات كثيرة. قال الدميري ان ملك النوبة اهدى الى الخليفة المتوكل قردًا خياطًا وآخر صائغًا. وقال ان اهل اليمن يعلمون القِرَدة القيام بحوائجهم حتى ان القصَّاب والبقال يعلم القرد حفظ الدكان حتى يعود صاحبهُ. وذكر ان قردًا ليزيد دُرِّب على ركوب الحمار فركبهُ وسابق بهِ مع الخيل وفي ذلك يقول

مَن مبلغ القرد الذي سَبَقَتْ بهِ جوادَ امير المؤمنين اتانُ
تعلَّق ابا قِرْشٍ بها ان ركبتَها فليس عليها ان هلكتَ ضمانُ

وقد اعتنى كثيرون من المتأخرين بتربية القرود والبحث في طبائعها فلخصنا بعض ما كتبهُ مشاهيرهم

قال العلَّامة برَهْم[1] افترقتُ عن رفاقي ذات يوم وانا في بوغسلند ولما اضناني التعب جلست لاستريح مقابل اكمة صخرية فسمعت منها صوتًا كنباح الكلاب ورأيت فيها اجلاً من القرود فصعدتُ في الاكمة واطلقتُ عليها الرصاص فهربت من وجهي ولم استطع ان اقتفي اثرها. ثم اجتمعتُ برفاقي بعد نحو ساعة ونصف وفيما نحن ندور حول تلك الاكمة صادفنا القرود فاطلقنا عليها الرصاص فاختفت من وجوهنا باسرع من لمح البصر. وصادفناها ثالثة في منعطف الوادي الذي بجانب الاكمة ولم يكن لها مغاثة منا مناص فحثثنا كلابنا على مهاجمتها وحرَّشنا بين

(١) هو الفرد برهم الجرماني الرحالة الشهير ولد سنة ١٨٢٨ وكان ابوهُ من المعرمين بعلم الطيور قربي على البحث في طبائع الحيوان ورافق البارون ملر الى افريقية فطاف مصر وبلاد النوبة والسودان الشرقية ودخل فردوس الطيور بين النيل الازرق والابيض ودرس طبائع الطيور التي تقيم فيهِ والتي تقطع منهُ صيفًا الى اوربا ونشر نتائج بحثهِ في ثلاثة مجلدات طبعها سنة ١٨٥٣. ثم طاف اسبانيا سنة ١٨٥٦ ودرس طبائع طيورها وانتقل منها الى اسوج ولابلاند ودعاهُ دوق ارنست للذهاب الى افريقية ثانية فذهب معهُ الى بلاد الحبش ودرس طبائع الطيور والحيوانات التي فيها والف في ذلك كتابًا كبيرًا طبع اولاً في ستة مجلدات وطبع ثانية في عشرة مجلدات. ثم الف كتابًا آخر في الطيور الداجنة في مجلدين وطاف بعد ذلك في سيبيريا وبعض بلاد الصين وذهب الى اميركا واصابهُ بها حمى شديدة فعاد الى وطنهِ حيث مات بداء الكليتين في الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٤. وهو من اشهر الكتاب في طبائع الحيوان والعلماء يعدونهُ ثقة في ما كتبهُ لانهُ مبنيٌّ على اختبارهِ ومشاهداتهِ

الكلاب وبينها فخافت الكلاب في اول الامر مع انها كانت تهجم على الضباع الكواسر ولا تخشى بأسها. وما زلنا نحثها حتى هجمت فانفردت الذكور الكبيرة عن بقية الاجل وارتدت على الكلاب واصطفّت في نصف دائرة وجعلت تزأر وتحرق اسنانها وتضرب الارض باكفّها فنكصت الكلاب على اعقابها خائفة منها وللحال عادت الفرود الى اجلها فحفضنا الكلاب على اتباعها مرة اخرى وكانت قد خرجت من مضيق الوادي ولم يبقَ منها فيه الاّ فرد صغير عمرهُ نحو ستة اشهر فقلتُ هذا غنيمتنا ولكن اخطأني الظن لانهُ صعد الى رأس صخرة وجعل يصيح فالتفت واحد من الذكور الكبار ولما رآهُ ترك رفاقهُ وعاد اليهِ والشرر يتطاير من عينيهِ فلما رأتهُ الكلاب ارتدت على اعقابها مذعورة اما هو فحمل الفرد الصغير على ظهرهِ واتبع خطوات رفاقهِ ونحن واقفون وكأنّ على رؤوسنا الطير. وهذا اي تصدّي الذكور لتخليص الصغار لا يكون الاّ عند الفرود اما بقية الحيوانات فانانيها تدافع عن صغارها

وقطعت هذا الوادي مرةً أخرى مع دوق ارنست فرأينا اجلاً من الفرود بقرب المكان الذي رأيناها فيهِ اولاً فاصطفّت سبعة من رجالنا واطلقوا عليها الرصاص معًا فهرب الاناث والصغار ودنت الذكور منا واخذت ترشقنا بالحجارة فلم نجد لنا مناصًا الاّ بالهرب فهربنا لا يلوي اولنا على آخرنا. ولما ذهبت الى السودان في النوبة الثانية اقمت في الخرطوم في فصل الشتاء وجمعت عددًا من الفرود وعلمتها ركوب الحمير فانقتهُ حالاً وكان يركب الخمسة والستة منها معًا على الحمار الواحد. ثم صارت تسكر واخلاقها تسوء كما تسوء اخلاق السكارى. وافرطتُ مرةً في السكر وشربت من الاشربة الروحية القوية فانزعجت كثيرًا ومرضت فصارت تعرض عن المسكرات متأففة منها فقلت في نفسي انها برئت من علة السكر (ولكن النفس امّارة بالسوء حتى في الحيوان الاعجم) فانها لمّا برئت من وعكة السكر عادت الى المسكرات القوية وبها رغبة شديدة فيها ومن ثمّ لم تَبعُد بيننا لما عرض ما لم تشرب كفافها. ولما عدتُ الى بلادي اخذتُ معي قردةً منها وكانت اشدها ذكاء فالِفَت اولاً الاولاد الصغار ولما لم ترَ الحبّ فيهم لها الفت الكلاب والهرر وتعلّقت بهرّة منها وكانت تحملها على ذراعيها دائمًا. وانزعجت الهرّة منها ذات يوم فحملتها في كفّها فقبضت على يد الهرّة وجعلت تفحصها لترى من اين اتاها الاذى فلما وقع نظرها على مخالبها اخذت تنزعها باسنانها واحدًا واحدًا كأنها قالت في نفسها ما هذه المخالب الحادّة لمثل هذا الحيوان الصغير

وهذه الفرود تميز بين العلة والمعلول وتعلّق المسببات باسبابها. ذكر برّهم انهُ وضع قليلاً من البارود بجانب القردة المذكورة آنفًا ووضع عليهِ صوفانة مشتعلة فلم يكن الاّ برهة وجيزة

حتى التهب البارود فصرخت القردة وهربت مذعورة . ثم غافلها مرة أخرى ووضع بجانبها قليلاً من البارود ووضع عليهِ صوفانة ورآهُ حالما وضع الصوفانة فرفعتها بيدها حالاً واطفأتها ثم اكلت البارود لما فيهِ من الملح . ويقال ان قردًا عضَّ ذراع صاحبهِ واسال دمهُ فعزم صاحبهُ على قتلهِ بالرصاص وعرف القرد ذلك فلما دنا منهُ الرجل الموكَّل بقتلهِ هرب الى المخدع الذي ينام فيهِ داخل قفصهِ حتى لم يعد للرصاص وصول اليهِ . وحاول الرجل اغراءهُ بالخروج فلم يخرج لا بالوعد ولا بالوعيد ولما حان وقت الطعام اتاهُ بطعامهِ ووضعهُ لهُ خارج القفص على جاري عادتهِ ومشى في طريقهِ فخرج القرد رويدًا رويدًا ولما لم يرَ احدًا خطف جانبًا من الطعام وهرب بهِ الى داخل مخدعهِ . ثم خرج ثانية ولما اراد الدخول اذا طريقهُ قد سُدَّت ووقف الرجل الموكل بقتلهِ امامهُ والبارودة بيدهِ فجعل القرد يثب الى هنا وهناك ولما رأى ابواب النجاة مسدودة في وجههِ اقام في مكانهِ وهو يرتعد ويرتجف ويتوقع الموت

وكتب بعضهم في الرئو سينتفيك يقول اتاني قرد صغير سنة ١٨٧٢ وكان اليفًا جدًّا فلم يقم عندي اياماً كثيرة حتى صرت اطلقهُ في البيت فيقيم في احدى الكوى المطلَّة على الشارع يراقب الناس . ثم زاد تعلُّقهُ بي حتى لم يعُد يفارقني . وكنت اخشىٰ من وجههِ احيانًا واقفل الباب فيقيم خارجًا يصيح ويحاول فتح الباب بيدهِ . واطلقت بارودة امامهُ يومًا فارتعب اشد الرعب ودخل قفصهُ واختفى في فراشهِ ولم يخرج منهُ حتى علقت البارودة في مكانها . ومن ثمَّ صار يختفي من وجهي كلما وضعت يدي على البارودة . وكان في سلسلة ساعتي قرد صغير وكان لهُ عادة ان يلعب بهِ فوضعت فيهِ كبسولة صغيرة ذات يوم واطلقتها فلما رآني احرِّك الديك اغمض عينيهِ كانهُ اوجس منهُ خيفة ولما سمع الصوت صرخ صرخة عظيمة وخرج من الغرفة ووثب من احدى الكوى وقبض على ميزاب السطح ونزل الى الشارع وركض الى بستان الجيران واختفى في احد خنادقهِ . ومن ثمَّ صار يهرب الى قفصهِ كلما امسكت ذلك القرد يدي ولا يرتاح بالهُ حتى اتركهُ . وكان يميز الصوَر من اول نظرة خلافًا لكثيرين من الناس فانهُ رأى مرةً كتابًا فيهِ صور فاخذ يقلبهُ على جاري عادة القرود حتى وصل الى صورة قرد فجالما وقع نظرهُ عليها القى الكتاب من يدهِ متأففًا وهرب الى قفصهِ . وصوَّرتُ مرةً هذا القرد وثلاثة من قرود جاوا وقردًا من طائفة البابون وقردًا من طائفة الساجو واعطيت كل قرد صورتهُ فعرفت القرود صورها كانها واقفة امام مرآة والاوَّل منها فهم اولاً ثم ضحك ثم دار ظهرهُ الى صورتهِ اكي تمك لهُ على جاري عادة القرود عندما يجبي بعضها بعضًا . والساجو وهو اقلها فهمًا فهم وحاول تمزيق الصورة باظافرهِ

والقرود على انواعها تعدُّ نفسها فوق سائر الحيوانات وتبذل جهدها في تذليلها . قال برَهْم

انهُ كان عندهُ كلب كبير السن شرس الاخلاق فلما رأته القردة المتقدم ذكرها احبَّت مداعبتهُ فغافلته ذات يوم وهو مقيد وامسكته بذنبهِ وجذبته جذبًا عنيفًا فاستيقظ مذعورًا وركض وراءها وهو ينبح فصارت كلما دنا منها تثب الى ما وراءهُ وتجذبهُ بذنبهِ فيأخذ يرغي ويزبد ويطاردها من جهة الى اخرى فلا يناله الاَّ الضيم فلما رأى منها ذلك ابتعد عنها وصار كلما رآها يخبئ ذنبهُ بين فخذيهِ

ومهما زادت نباهة القرود الشبيهة بالكلاب لا تبلغ نباهة القرود الشبيهة بالبشر التي منها الشمبنزي والغورلاَّ والأورانوتان فان هذه الحيوانات اذا رآها الانسان اضطرَّ ان يعاملها لا كما يعامل الحيوان الاعجم بل كما يعامل الانسان الناطق فللشمبنزي اصوات مقطعيَّة يدلُّ بها على اغراضهِ حتى ان الاولاد الذين يربون معهُ يستطيعون ان يفهموا مرادهُ حالاً . وهو يخضع للانسان ويظهر عليهِ انهُ يشعر بسيادة الانسان عليهِ ويرفُّعهِ عنهُ ولكنهُ لا يقر بهذه السيادة لاحد غير الانسان بل يعد نفسهُ ارفع من كل الحيوانات ومن بقية طوائف القرود خصوصًا . ويحب اللعب مع الاولاد وتفحُّص الآلات والادوات واذا فهم كيفية حركاتها وطرق استعمالها طرب لذلك طربًا عظيمًا كأنهُ اكتشف سرًّا خفيًّا . وهو ظريف لطيف لين العريكة تراهُ تارةً جذلاً طربًا وتارة حزينًا كئيبًا ولا يتقلَّب الاَّ على هذين الحالين

قال برهم كان عندي شمبنزي نبيه جدًّا وكان يفرح كثيرًا حينما اسمح لهُ بمجالسة الناس فيدخل ويخرج ويمزح معنا كأنهُ واحد منَّا واذا اذنت لهُ في الاكل معنا على المائدة فهناك الفرحة الكبرى . وكان متأدبًا في اكلهِ وشربهِ فيحسو الشاي من حافة الفنجان وينفث فيهِ الخبز ويأكلهُ بالملعقة ويصب الخمر من القنينة في الكاس ثم يشربها منها . ولم يكن يعاشر العجماوات على الاطلاق لانهُ كان يحتقر الصغيرة ويخاف من الكبيرة بل كان دائمًا مع اولادي وكنا نعدهُ كواحد منَّا . ثم اصابهُ التهاب الغدتين النكفيتين وذات الرئة فاستدعيت لهُ طبيبين من مهرة الاطباء فاعطاها يدهُ ليجسَّا نبضهُ وفتح فاهُ ليريا لسانهُ وامسك يد الطبيب يدهِ وهداهُ الى الورم الذي في حلقهِ فكما يقطع خوفًا عليهِ من الاختناق وخافا ان يستعملا لهُ الكلوروفورم بداعي ذات الرئة فاتينا باربعة رجال اشداء ليمسكوهُ وقت العملية فلما رآهم وعرف غرضهم دفعهم جانبًا وجلس في حضن المرضة وادنى حلقهُ من الطبيبين من تلقاء نفسهِ فنزعا الورم وهو لم يبدِ حركة . ولما انتهيا هزَّ يديهما علامة التشكر من صنيعهما لانهُ ارتاح كثيرًا بنزع الورم ولكن سبتهُ كانت محتومة فمات بذات الرئة وبكاهُ كثيرون من اهالي برلين